المجموعة التاريخية للصغار

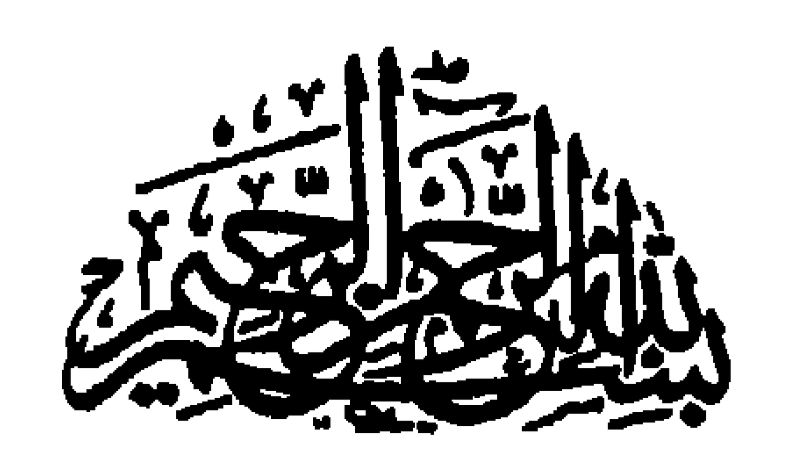
عبيرٌ من الشرقِ

عجائب رحلة ابن بطوطة



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب :78

هاتف 2213129 3 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

عَبِيرٌ مِنَ الشَّرْقِ

أَبْدَىٰ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ شَوْقاً وَتَلَهُّفاً عَظِيمَيْنِ لِسَمَاعِ أَخْبَارِ ابْنِ بَطُّوطَةَ فِي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ ، فَرَاحَ ابْنُ بَطُّوطَةَ يَرْوِي أَخْبَارَهُ العَجِيبَةَ عَلَىٰ عَادَتِهِ ، إِلاَّ أَنَّهُ هَذِهِ المَرَّةَ كَانَ يَرْوِي مَايَرْوِيهِ بِتَأَثُّرٍ وَحَنِينٍ وَاشْتِيَاقٍ إِلَىٰ حَبِيبَةِ قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ وَرُكْنِ اللهِ الرَّكِينِ ، الكَعْبَةَ المَكْسُوَّةِ ، كَالعَرُوسِ المَجْلُوَّةِ زَادَهَا اللهُ شَرَفاً وَتَعْظِيماً .

قَالَ الرَّحَّالَةُ أَبُو عَبْدِ اللهِ شَمْسُ الدِّينِ الشَّهِيرُ بِابْنِ بَطُّوطَةَ يَتَحَدَّثُ إِلَىٰ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ مَلِكِ فَاسَ ، وَيُمْلِي عَلَىٰ كَاتِبِهِ مُحَمَّدِ بْنِ جُزَيٍّ :

ـ كَانَ رَحِيلُنَا مِنَ المَدِينَةِ نُرِيدُ مَكَّةَ شَرَّفَهُمَا اللهُ تَعَالَىٰ ، فَنَزَلْنَا بِقُرْبِ مَسْجِدِ ذِي الحُلَيْفَةِ الذِي أَحْرَمَ مِنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُنْتَهَىٰ حَرَمِ المَدِينَةِ ، وَبِالقُرْبِ مِنْهُ وَادِي العَقِيقِ . وَهُنَالِكَ تَجَرَّدَ الحَجِيجُ وَتَجَرَّدْتُ مِنَ الثِّيَابِ المَخِيطَةِ ، وَاغْتَسَلْتُ وَلَبِسْتُ ثَوْبَ إِحْرَامِي كَمَا فَعَلُوا .

وَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ عَلَىٰ نِيَّةِ الحَجِّ مُفْرِداً . وَلَم أَزَلْ مُلَبِّيًابِهُتَافِ (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ) فِي كُلِّ سَهْلٍ وَجَبَلٍ . وَفِي كُلِّ مَصْعَدٍ وَمُنْحَدَرٍ إِلَىٰ أَنْ أَتَيْتُ وَمَنْ مَعِي شِعْبَ عَلِيٍّ وَبِهِ نَزَلْنَا لَيْلَتَنَا .

ثُمَّ رَحَلْنَا مِنْ شِعْبِ عَلِيٍّ ، وَنَزَلْنَا بِالرَّوْحَاءِ ، وَمِنْهَا انْتَقَلْنَا إِلَىٰ وَادٍ مَعْمُورٍ فِيهِ مَاءٌ وَنَخْلٌ وَبُنْيَانٌ وَقَصْرٌ يَسْكُنُهُ الشُّرَفَاءُ ، وَفِيهِ حِصْنٌ كَبِيرٌ ، تَوَالَتْ بَعْدَهُ حُصُونٌ كَثِيرَةٌ وَقُرَىً مُتَّصِلَةٌ حَتَّىٰ نَزَلْنَا بَدْراً حَيْثُ نَصَرَ اللهُ فِيهَا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ نَصْراً مُؤَزَّراً مَذْكُوراً لاَ يُنْسَىٰ .

وَبَدْرُ قَرْيَةٌ فِيهَا حَدَائِقُ نَخْلٍ ، وَعَيْنُ مَاءٍ فَوَّارَةٌ ، وَبِهَا القَلِيبُ الذِي سُحِبَ إِلَيْهِ أَعْدَاءُ اللهِ المُشْرِكُونَ ، وَمَوْضِعُهُ اليَوْمَ بُسْتَانٌ يُطِلُّ عَلَيْهِ جَبَلُ الرَّحْمَةِ ، وَجَبَلُ الطُّبُولِ ، وَعِنْدَ نَخْلِ القَلِيبِ مَسْجِدٌ يُقَالُ إِنَّهُ مَبْرَكُ نَاقَةِ النَّبِيِّ ﷺ . وَيَلِي بَدْراً صَحْرَاءُ وَاسِعَةٌ يَضِلُّ بِهَا الدَّلِيلُ وَفِي مُنْتَهَاهَا وَادِي رَابِغْ ، حَيْثُ الغُدْرَانُ التِي يَبْقَىٰ بِهَا مَاءُ المَطَرِ زَمَاناً طَوِيلاً . وَرَابِغٌ هِيَ مَوْضِعُ إِحْرَامِ حُجَّاجِ مِصْرَ وَالمَغْرِبِ وَهُوَ مَوْضِعٌ دُونَ الجُحْفَةِ .

قَالَ السُّلْطَانُ مُعَلِّقاً عَلَىٰ حَدِيثِ مُنَادِمِهِ ابْنِ بَطُّوطَةَ بِنَفَادِ صَبْرٍ :

ـ مَا هَذِهِ الأَوْصَافُ لِلأَمَاكِنِ وَالبُلْدَانِ ؟ صِلْ بِنَا إِلَىٰ مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ وَابْلُغْ بِنَا البَيْتَ الحَرَامَ وَالكَعْبَةَ المُشَرَّفَةَ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ عَفْوَ مَوْلَايَ السُّلْطَانِ . . إِنَّهُمْ يَقُولُونَ : كُلَّمَا صَبَرْتَ عَنْ طَيِّبٍ وَجَدْتَهُ أَطْيَبَ . . وَهَأَنَذَا أَخْتَصِرُ المَسَافَاتِ وَالأَطْوَالَ عَلَىٰ مَا تُحِبُّ وَتَرْضَىٰ ، وَقَالَ :

ـ سِرْنَا مِنْ رَابِغٍ إِلَىٰ بِرْكَةِ خُلَيْفٍ إِلَىٰ عُسْقَانَ وَبِهَا حِصْنٌ عَتِيقٌ وَبُرْجٌ مُشَيَّدٌ قَدْ أَوْهَنَهُ الخَرَابُ وَنَزَلْنَا بَطْنَ مَرَّ وَهُوَ وَادٍ مُخْصِبٌ كَثِيرُ النَّخْلِ ، وَمِنْهُ تُجْلَبُ الفَوَاكِهُ وَالخُضَرُ إِلَىٰ مَكَّةَ ، شَرَّفَهَا اللهُ تَعَالَىٰ . وَقَطَعْنَا هَذَا الوَادِي مَسِيرَةَ لَيْلِنَا وَالنُّفُوسُ مُسْتَبْشِرَةٌ بِبُلُوغِ آمَالِهَا مَسْرُورَةٌ بِحَالِهَا وَمَآلِهَا ، فَوَصَلْنَا عِنْدَ الصَّبَاحِ إِلَىٰ البَلَدِ الأَمِينِ مَكَّةَ .

هُنَا تَعَثَّرَتِ الكَلِمَاتُ عَلَىٰ شَفَتَيِ ابْنِ بَطُّوطَةَ ، وَاسْتَوْقَفَ العَبَرَاتِ فِي مَآقِيهِ لِهُبُوبِ عَبِيرٍ لَافِحٍ مِنَ الشَّوْقِ الحَارِّ ، وَلَحِظَ ذَلِكَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ فَانْدَهَشَ ، وَصَرَفَ نَظَرَهُ هُنَيْهَةً ثُمَّ قَالَ :

ـ شَوَّقْتَنَا يَا ابْنَ بَطُّوطَةَ فَأَذِقْنَا مِمَّا شَوَّقْتَنَا إِلَيْهِ . .

رَدَّدَ أَبُو عَبْدِ الله ، ابْنُ بَطُّوطَةَ مَقُولَتَهُ المُعْتَادَةِ : (أَمْرُ مَوْلَايَ . . أَمْرُ مَوْلَايَ) وَاسْتَأْنَفَ الكَلَامَ : دَخَلْنَا البَيْتَ الحَرَامَ الشَّرِيفَ الذِي عُرِفَ أَنَّ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا . . وَشَاهَدْنَا الكَعْبَةَ الشَّرِيفَةَ زَادَهَا الله تَعْظِيماً ، وَهِيَ كَالعَرُوسِ تُجْلَىٰ عَلَىٰ مِنَصَّةِ الجَلَالِ ، وَتَرْفُلُ فِي بُرُودِ الجَمَالِ ، مَحْفُوفَةً بِوُفُودِ الرَّحْمَنِ ، مُوصِلَةً إِلَىٰ جَنَّةِ الرِّضْوَانِ . ـ

تَوَقَّفَ ابْنُ بَطُّوطَةَ عَنِ الحَدِيثِ وَالسَّرْدِ كَرَّةً ثَانِيَةً وَتَعَثَّرَتِ الكَلِمَاتُ عَلَىٰ شَفَتَيْهِ لِمَا اعْتَرَضَهُ مِنْ خَيَالِ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ وَهُبُوبِ عَبِيرِ الأَشْوَاقِ . . وَلَكِنَّهُ اسْتَأْنَفَ الكَلَامَ بَعْدَ هُنَيْهَةٍ قَصِيرَةٍ ، وَقَبْلَ أَنْ يَعْتَرِضَهُ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ مُحْتَجّاً . . قَالَ :

ـ شَرَعْنَا يَا مَوْلَايَ بِطَوَافِ القُدُومِ حَوْلَ الكَعْبَةِ سَبْعَةَ أَشْوَاطٍ ، انْطِلَاقاً مِنَ الحَجَرِ الأَسْوَدِ ، وَقَدْ جَهِدْتُ لاسْتِلَامِ الحَجَرِ الكَرِيمِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ أَثْنَاءَ الطَّوَافِ ، وَقَبَّلْتُهُ تَقْبِيلَ المُلَاقِي المُشْتَاقِ لِحَبِيبِهِ . . وَبَعْدَ أَنْ فَرَغْتُ مِنَ الطَّوَافِ صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ بِمَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ، عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَتَعَلَّقْتُ

بِأَسْتَارِ الكَعْبَةِ مَعَ المَتَعَلِّقِينَ ، وَسَأَلْتُ الله جَلَّ وَعَلا ، أَنْ يُوَسِّعَ خُطَايَ فِي هُدَاهُ ، وَأَنْ يُوَفِّقَنِي إِلَىٰ جَمِيعِ مَا يَرْضَاهُ . وَلَمْ اتْرُكْ التَّعَلُّقَ بِالأَسْتَارِ الشَّرِيفَةِ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا ازْدَحَمَ مِنْ حَوْلِي المُلْتَزَمُ بَيْنَ البَابِ وَالحَجَرِ ، حَيْثُ يَحْرِصُ المُؤْمِنُونَ عَلَىٰ الدُّعَاءِ فِي أَقْرَبِ المُقَدَّسَاتِ اسْتِجَابَةً لِلقَاصِدِينَ الذِينَ يَعُجُّونَ بِالنِّدَاءِ وَالبُكَاءِ . . وَكُنْتُ مِنْهُمْ يَا مَوْلاَيَ . . . إِي نَعَمْ ، كُنْتُ مِنْهُم . .

حَدَثَ مَا لَمْ يَكُنْ بِحُسْبَانِ ابْنِ بَطُّوطَةَ وَلاَ بِحُسْبَانِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ ، فَلَقَدْ تَسَلَّلَ الحَنِينُ وَالشَّوْقُ مِنْ رَاوِي المَجْلِسِ إِلَىٰ المُسْتَمِعِ فِيهِ ، وَتَرَقْرَقَتْ عَيْنَا السُّلْطَانِ نَفْسِهِ اسْتِعْبَاراً وَتَأَثُّراً بِعَبَرَاتِ ابْنِ بَطُّوطَةَ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ وَمَاذَا بَعْدُ يَابْنَ بَطُّوطَةَ . . لَقَدْ فَجَّرْتَ فِينَا يَنْبُوعاً لِلشَّوْقِ وَالحَنِينِ لَمْ يَتَفَجَّرْ مُنْذُ أَزْمَانٍ . . سَامَحَكَ الله . . سَامَحَكَ الله . . بَلْ بَارَكَ الله فِيكَ . . بَارَكَ الله فِيكَ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ الأَمِينُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ بَلَّغَكَ اللهُ مَا بَلَّغَنِي مِنْ نَوَالِ رِضَاهُ بِزِيَارَةِ الكَعْبَةِ المُشَرَّفَةِ ، فَأَنْتَ يَا مَوْلَايَ جَمُّ الإِيمَانِ ، جَمُّ التُّقَىٰ وَالصَّلاحِ ، وَلَكِنَّ حَجَّكَ إِلَىٰ مَكَّةَ يَزِيدُ فِرِنْدَكَ[1] صَقْلاً ، وَيَسِمُ[2] فَضْلَكَ المَوْفُورَ نُبْلاً . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ يَحُثُّ ابْنَ بَطُّوطَةَ عَلَىٰ مُتَابَعَةِ الوَصْفِ وَالكَلَامِ :

ـ وَمَاذَا كَانَ مِنْكَ بَعْدَ الدُّعَاءِ المُسْتَجَابِ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَىٰ ؟

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ جِئْتُ بِئْرَ زَمْزَمَ تَحْتَ قُبَّةٍ تُقَابِلُ الحَجَرَ الأَسْوَدَ ، بَيْنَهُمَا أَرْبَعٌ وَعُشْرُونَ خُطْوَةً . وَدَاخِلُ القُبَّةِ مَفْرُوشٌ بِالرُّخَامِ الأَبْيَضِ وَبَابُهَا إِلَىٰ جِهَةِ المَشْرِقِ يَدْخُلُ مِنْهُ الحَجِيجُ لِلوُضُوءِ أَوْ لِلشُّرْبِ مِنْ قِلالٍ يُسَمُّونَهَا الدَّوَارِقَ ، تَصْلُحُ لِيُبَرَّدَ فِيهَا المَاءُ . وَقَدْ شَرِبْتُ مِنْ احْدَىٰ القِلَالِ مَاءً بَارِداً ، وَدَعَوْتُ اللهَ دُعَاءً مُخْتَاراً أَحْفَظُهُ ، فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :

---

(١) الفِرِندُ : جوهر السيف .

(٢) يسمُ : يزين بالوسم أو بالعلامة الفارقة .

«مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ» فَهُوَ يَصْلُحُ شِفَاءً وَدَوَاءً وَتَقَرُّباً مِنَ اللهِ الكَرِيم

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ وَمَعَهُ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ :

ـ هَنِيئاً لَكَ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ ، طِبْتَ بِمَا اسْتَقَيْتَ وَسَقَاكَ اللهُ . .

وَتَسَاءَلَ ابْنُ جُزَيٍّ :

ـ وَهَلْ سَعَيْتَ بَعْدَهَا بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ ؟ !

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ بَلَىٰ ، قَدْ سَعَيْتُ لِتَوِّي وَلَمْ أَتَبَاطَأْ ، وَلِلصَّفَا بَابٌ هُوَ أَحَدُ أَبْوَابِ المَسْجِدِ الحَرَامِ التِّسْعَةَ عَشَرَ وَأَكْبَرُهَا .

وَامْتِدَادُهُ إِلَىٰ آخِرِ المَسْعَىٰ أَرْبَعُمِائَةٍ وَثَلاثٌ وَتِسْعُونَ خُطْوَةً . وَبَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ دَارُ العَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وَهِيَ الآنَ رِبَاطٌ يَسْكُنُهُ المُجَاوِرُونَ لِلحَرَمِ المَكِّيِّ الشَّرِيفِ عَمَّرَهُ وَأَعَدَّهُ لِذَلِكَ المَلِكُ النَّاصِرُ رَحِمَهُ اللهُ .

قَالَ ابْنُ جُزَيٍّ :

ـ وَأَيْنَ كَانَ مَنْزِلُكَ فِي مَكَّةَ آنَئِذٍ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ نَزَلْنَا هُنَالِكَ بِدَارٍ عَلَىٰ مَقْرُبَةٍ مِنْ بَابِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهُوَ رِبَاطٌ مِنْ أَحْسَنِ الرِّبَاطَاتِ يُعْرَفُ بِرِبَاطِ المُوَفَّقِ ، وَفِيهِ التَقَيْتُ بِكِرَامِ الرِّجَالِ الصَّالِحِينَ ، مِنْهُمُ الشَّيْخُ أَبُو عَبْدِ اللهِ الزَّوَاوِيُّ المَغْرِبِيُّ ، وَالشَّيْخُ الصَّالِحُ الطَّيَّارُ سَعَادَةُ الجِرَانِيُّ ، وَشَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الشَّامِيُّ ، وَالشَّيْخُ الصَّالِحُ شُعَيْبُ المَغْرِبِيُّ الذِي دَخَلْتُ عَلَيْهِ يَوْماً فَلَمْ يَقَعْ بَصَرِي فِي بَيْتِهِ عَلَىٰ شَيْءٍ سِوَىٰ حَصِيرٍ . فَلَمَّا قُلْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ قَالَ لِي : اسْتُرْ عَلَيَّ مَا رَأَيْتَ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ عَسَاكَ لاَ تَسْتَكْثِرُ عَلَيَّ قَاعَةَ العَرْشِ هَذِهِ بِمَا فِيهَا مِنْ بُسُطٍ وَنَمَارِقٍ وَسُتُورٍ وَسُدَدٍ . .

ـ حَاشَا وَكَلاَّ يَا مَوْلاَيَ . . فَإِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ الوَاسِعُ العَلِيمُ ، وَهُوَ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ، وَمَا أَعْهَدُكَ إِلاَّ مُحَدِّثاً بِنِعْمَتِهِ ، شُكُوراً لَهُ لِيَزِيدَكَ إِنْ شَاءَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ .

بِهَذَا الكَلامِ سُرِّيَ عَنْ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ وَقَالَ :

ـ اشْتَقْتُ إِلَىٰ سَمَاعِ عَجِيبَةٍ مِنْ عَجَائِبِكَ مِمَّا رَأَيْتَهُ وَسَمِعْتَهُ فِي المَسْجِدِ الحَرَامِ أَوْ فِي مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ . .

قَالَ الرَّحَّالَةُ المُنَادِمُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ سَأُحَدِّثُكَ يَا مَوْلَايَ بِأَكْثَرَ مِنْ حَدِيثٍ عَجِيبٍ ، مِنْهُ مَا شَهِدْتُهُ بِأُمِّ عَيْنَيَّ ، وَمِنْهُ مَا سَمِعْتُهُ بِالتَّوَاتُرِ مِمَّا هُوَ مَأْثُورٌ وَمَشْهُورٌ عِنْدَهُم :

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ الفَاسِيُّ :

ـ هَاتِ مَا عِنْدَكَ يَا بْنَ بَطُّوطَةَ .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ أَبُو عَبْدِ اللهِ شَمْسُ الدِّينِ :

ـ سَاكَنْتُ الشَّيْخَ الصَّالِحَ الطَّيَّارَ سَعَادَةَ الجِرَانِيَّ فِي رِبَاطِ المُوَفَّقِ عَلَىٰ مَقْرُبَةٍ مِنْ بَابِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَذَاتَ يَوْمٍ صَادَفْتُهُ بِبَابِ حُجْرَتِهِ وَقْتَ صَلاَةِ العَصْرِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فَلَم يَرُدَّ السَّلامَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَبَرَكَاتِهِ وَإِنَّمَا أَشَارَ إِلَيَّ بِأَرْبَعٍ مِنْ أَصَابِعِ يَدِهِ اليُمْنَىٰ وَهُوَ يَقُولُ : (أَرْبَعُ خُطُوَاتٍ ثُمَّ نَلْتَقِي) فَلَم أَفْهَم لَهُ قَصْداً بِهَذِهِ الإِشَارَةِ حَتَّىٰ إِذَا أَذَّنَ العَصْرُ وُجِدَ

الشَّيْخُ الصَّالِحُ سَعَادَةُ الجِرَانِيّ سَاجِداً مُسْتَقْبِلاً الكَعْبَةَ الشَّرِيفَةَ مَيْتاً مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ كَانَ بِهِ ، فَهَذَا حَادِثٌ عَجِيبٌ قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ حَقّاً إِنَّهُ حَادِثٌ عَجِيبٌ ، وَكَأَنِّي بِالشَّيْخِ الصَّالِحِ قَدْ كُشِفَ عَنْ بَصِيرَتِهِ فَتَوَقَّعَ لِقَاءَ اللهِ بَعْدَ أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ أَوْ أَرْبَعِ خُطُوَاتٍ كَمَا أَسْمَاهَا . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ وَأَمَّا الحِكَايَةُ العَجِيبَةُ الثَّانِيَةُ يَا مَوْلَايَ فَهِيَ أَنِّي وَدِدْتُ لِقَاءَ أَمِيرِ مَكَّةَ سَيْفِ الدِّينِ عُطَيْفَةَ بْنِ أَبِي نَمِيّ ، وَكَانَتْ دَارُهُ عَنْ يَمِينِ المَرْوَةِ لِلسَّاعِي بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَة ، فَقُلْتُ أَلْزَمُ المَرْوَةَ حِيناً فَلَا بُدَّ أَنْ أَلْقَاهُ هُنَاكَ . وَمَا كِدْتُ أَلْزَمُ مَوْقِفِي بِالمَرْوَةِ حَتَّىٰ بَادَرَنِي بِالسَّلامِ رَجُلٌ وَجِيهٌ عَزِيزُ المَقَامِ قَائلاً : .

ـ وَعَلَيْكَ السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ ، يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ الطَّنْجِي المَغْرِبِيّ . . أَلَسْتَ بِذَاكَ ؟

قُلْتُ : (بَلَىٰ) وَلَكِنْ قُلْ لِي :(مَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدِي ؟) قَالَ : (أَنَا

الذي وَدِدْتَ السَّلامَ عَلَيْهِ أَمِيرُ مَكَّةَ ، وَأَدْعُوكَ لِزِيَارَتِي فِي دَارِ الإِمَارَةِ إِذَا فَرَغْتَ مِنْ حَجِّكَ بَعْدَ التَّحَلُّلِ مِنْ إِحْرَامِكَ . . قُلْتُ : سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ الله . . فَلَمَّا لَقِيتُهُ قَالَ : هَيَّئتُكَ تَطُوفُ فِي البُلْدَانِ وَتَنْأَىٰ عَنِ الأَوْطَانِ فَتَزَوَّدْ إِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ . فَمَا زِلْتُ أَلْقَىٰ عُلَمَاءَ مَكَّةَ وَفُقَهَاءَهَا وَأَكْرَمَنِي رَبِّي بِرُؤْيَةِ رَسُولِ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي المَنَامِ يُوَجِّهُنِي إِلَىٰ العِلْم.

وَمِنَ المَشَاهِدِ الكَرِيمَةِ وَالأَعَاجِيبِ التِي تَوَاتَرَ الحَدِيثُ عَنْهَا مَشْهَدُ الحَجَرِ النَّاطِقِ ، فَتَحْتَ قُبَّةِ الوَحْيِ فِي دَارِ خَدِيجَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ وَعَلَىٰ مَقْرُبَةٍ مِنْهَا ، تَقَعُ دَارُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ الله عَنْهُ - وَيُقَابِلُهَا جِدَارٌ مُبَارَكٌ ، فِيهِ حَجَرٌ مُبَارَكٌ لَهُ طَرَفٌ بَارِزٌ يَسْتَلِمُهُ النَّاسُ . سَأَلْتُ عَنْ خَبَرِهِ ، فَقِيلَ لِي : إِنَّهُ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ . وَقِيلَ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَىٰ إِلَىٰ دَارِ صَاحِبِهِ أَبِي بَكْرٍ فَنَادَىٰ فِي طَلَبِهِ وَلَمْ يَكُنْ حَاضِراً ، فَمَا كَانَ مِنَ الحَجَرِ إِلاّ أَنْ سَلَّمَ عَلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ وَقَالَ نَاطِقاً : (يَا رَسُولَ الله إِنَّهُ لَيْسَ بِحَاضِرٍ) . فَعُرِفَ مِنْ حِينِهَا بِالحَجَرِ النَّاطِقِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ يُبْدِي إِعْجَابَهُ بِمَا سَمِعَ مِنْ نَدِيمِهِ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ لَقَدْ كَفَّيْتَ يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ وَوَفَّيْتَ . .

أَجَابَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ قَبْلَ أَنْ يَنْفَضَّ مَجْلِسُنَا هَذِهِ اللَيْلَةِ بِأَمْرِكَ المُطَاعِ دَعْنِي يَا مَوْلَايَ ، أُحَدِّثْكَ خِتَاماً عَنْ عَجَائِبِ صُنْعِ اللهِ حِينَ طَبَعَ قُلُوبَ عِبَادِهِ المُؤْمِنِينَ ، عَلَىٰ النُّزُوعِ إِلَىٰ هَذِهِ المَشَاهِدِ المُنِيفَةِ ، وَالشَّوقِ إِلَىٰ المُثُولِ بِمَعَاهِدِهَا الشَّرِيفَةِ . وَقَدْ جَعَلَ حُبَّهَا مُتَمَكِّناً فِي القُلُوبِ ، فَلَا يَحُلُّهَا أَحَدٌ إِلَّا أَخَذَتْ بِمَجَامِعِ قَلْبِهِ فَهُو لَا يُفَارِقُهَا إِلَّا آسِفاً لِفِرَاقِهَا ، مُتَوَلِّهاً لِبِعَادِهِ عَنْهَا ، شَدِيدَ الحَنِينِ إِلَيْهَا ، نَاوِياً لِتِكْرَارِ الوِفَادَةِ عَلَيْهَا .

عِنْدَ هَذَا الحَدِّ مِنَ الكَلَامِ تَعَثَّرَتْ الكَلِمَاتُ عَلَىٰ شَفَتَيْ المُتَحَدِّثِ ابْنِ بَطُّوطَةَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، وَاعْتَذَرَ هُنَيْهَةً لِمُغَالَبَتِهِ دُمُوعَ الشَّوقِ ، وَأَضَافَ يَقُولُ :

ـ تِلْكَ الأَرْضُ المُبَارَكَةُ تَبْدُو دَائِماً نُصْبَ الأَعْيُنِ ، وَمَحَبَّتُهَا حَشْوَ القُلُوبِ ، حِكْمَةً مِنَ اللهِ بَالِغَةً ، وَتَصْدِيقاً لِدَعْوَةِ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَرْفَعُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وَمِنْ أَعْجَبِ العَجَائِبِ يَا مَوْلَايَ

السُّلْطَانِ أَنَّ الشَّوْقَ يُحَضِّرُهَا وَهِيَ نَائِيَةٌ ، وَيُمَثِّلُهَا وَهِيَ غَائِبَةٌ ، وَيُهَوِّنُ عَلَىٰ قَاصِدِيهَا مَا يَلْقَاهُ مِنَ المَشَاقِّ ، وَيُعَانِيهِ مِنَ العَنَاءِ ، وَكَمْ مِنْ ضَعِيفٍ يَرَىٰ المَوْتَ مِنْ دُونِهَا عَيَاناً ، وَيُشَاهِدُ التَّلَفَ فِي طَرِيقِهَا امْتِحَاناً ، فَإِذَا جَمَعَ الله بِهَا شَمْلَهُ تَلَقَّاهَا مَسْرُوراً مُسْتَبْشِراً ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَذُقْ لَهَا مَرَارَةً ، وَلَمْ يُكَابِدْ مِحْنَةً وَلاَ نَصَباً . .

قَالَ الكَاتِبُ مُحَمَّدُ بْنُ جُزَيٍّ مُعَلِّقاً عَلَىٰ مَا يَسْمَعُ :

ـ حَقاً ، إِنَّهُ لأَمْرٌ إِلَهِيٌّ ، وَصُنْعٌ رَبَّانِيٌّ ، وَدِلاَلَةٌ مَا بِهَا لَبْسٌ ، وَلاَ تَغْشَاهَا شُبْهَةٌ ، وَلاَ يَطْرُقُهَا تَمْوِيةٌ ، وَمَنْ رَزَقَهُ الله تَعَالَىٰ الحُلُولَ بِتِلْكَ الأَرْجَاءِ ، وَالمُثُولَ بِذَلِكَ الفِنَاءِ[1] ، فَقَدْ أَنْعَمَ الله عَلَيْهِ النِّعْمَةَ الكُبْرَىٰ . .

قَامَ ابْنُ بَطُّوطَةَ مِنْ مَجْلِسِهِ إِلَىٰ نَافِذَةٍ قَرِيبَةٍ فِي قَاعَةِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ ، وَكَانَتْ النَّافِذَةُ مُشْرَعَةً بِاتِّجَاهِ الشَّرْقِ ، بِاتِّجَاهِ الحِجَازِ حَيْثُ طَيْبَةُ الطَّيِّبَةُ وَالمَدِينَةُ المُنَوَّرَةُ مَثْوَىٰ الرَّسُولِ ﷺ . . وَشَهَقَ بِنَفَسٍ عَمِيقٍ وَكَأَنَّهُ

(١) الفناء : ساحة البيت ، وقصد ساحة الحرم الشريف حول الكعبة المشرّفة .

يَتَنَفَّسُ عَبِيراً وَافِداً مِنَ الشَّرْقِ حَرِصَ عَلَىٰ أَنْ يَلْتَقِيَٰ أَنْسَامَهُ بِجَمِيعِ حَنَايَاهُ ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَىٰ السَّمَاءِ بِدُعَاءٍ غَامِضٍ لَمْ تَتَضِحْ مِنْهُ كَلِمَةٌ . هُنَا طَفِرَتْ دَمْعَةٌ غَالِبَةٌ مِنْ عَيْنِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ وَتَحَرَّكَ فِي نَفْسِهِ لاعِجُ الشَّوْقِ ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ مُؤَمِّناً عَلَىٰ دُعَاءِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ اللهمَّ آمِينَ . . اللهمَّ آمِينَ . .

وَشُغِلَ المَجْلِسُ السُّلْطَانِيُّ كُلُّهُ بِعَبِيرٍ قَادِمٍ مِنَ الشَّرْقِ .

☆☆ ☆☆ ☆☆

☆☆ ☆☆

☆